الحقيقة القرآنية
بين السلف والمعتزلة

د . كمال محمد عيسى

قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الملك عبد العزيز

● بين يدى البحث :

إن الذى ألح علىّ فى الاتجاه نحو هذا الموضوع ، وملك العاطفة والعقل : قسوة الأحكام المرسلة من أهل القبلة بعضهم على بعض ، ثم حيرة الشباب وسط دوامة الاختلافات ، فشاعت فى دنياهم أصداء التكفير .. وسهل على ألسنتهم التنابز بالألقاب .

لهذا أردت - بتوفيق اللّه - جمع أطراف الصورة الإسلامية بين فريقى السلف والمعتزلة - بما فيها من عناصر ائتلاف ، وخطوط اختلاف متجنباً زحمة المبادىء .. وصراع الأفكار .. وضروب الأحكام المفتعلة ومبرزاً أقوال الأئمة وأحكامهم : ليرى الشباب فى ضوئها سماحة الإسلام ، وتماسك أهل القبلة مهما كان الاختلاف .. فيخففوا من غلوائهم فى إرسال أحكامهم بالتكفير على كل من خالف فى الرأى .. أو باعد فى الفهم .. أو جانبه الصواب فى الاجتهاد .

● التمهيد :

ما المراد بالحقيقة :

الحقيقة فعيلة من الحق بمعنى الثابت ، فتستعمل فى الشىء الذى له ثبات ووجود كقوله صلى اللّه عليه وسلم لحارثة بن مالك « لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » ، أى ما الذى ينبىء عن كون ما تدعيه حقاً ؟

وقيل : « الدنيا باطل والآخرة حقيقة لزوال هذه وبقاء تلك » (١) .

---

(١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى .

والحقيقة أيضاً ما يصير إليه حق الأمر وحقيقته ، أى يقين شأنه ، وفى الحديث : « لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلماً بعيب هو فيه » (يعنى خالص الإيمان ومحضه) (١) .

فى ضوء هذا نعنى بالحقيقة :

الوجود الحى القائم على الصحة والسلامة والخلود .. فإذا كانت العلوم الإنسانية تتجدد مع الزمن على سنة التقدم ، ولا تزال بين ناقص يتم .. وغامض يتفتح .. وموزع يتجمع .. وخطأ يقترب من الصواب .. وتخمين يترقى إلى اليقين .. ثم تتقوض القواعد العلمية بعد رسوخ .. أو تتزعزع بعد ثبوت .. ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون (٢) ..

فإن الحقيقة القرآنية هى المصدر الإلهى الذى يحمى نفسه حماية ذاتية فلا يندس فيه ما ليس منه .. ولا يرقى الشك إلى صحته وخلوده .

ليس المراد بالحقيقة إذاً ما يقابل الشريعة عند الصوفية أو ما يقابل الظاهر عند الرافضة والباطنية .

فالقرآن عند الرافضة والباطنية له ظاهر لا يعبر عن حقائق الأمور فى ذاتها .. وإنما هو رموز وأمثال لمعان باطنية لا يعرفها إلاّ الإمام المعصوم .

وكذلك عند الصوفية فالقرآن شريعة لعامة الناس المحجوبين عن معرفة الحقائق .. وله حقيقة لا يعرفها إلا من له نصيب من التجليات الإلهية .

يقول ابن تيمية : « من قال : إنه يحتاج إلى محمد ﷺ فى علم الظاهر دون علم الباطن ، أو فى الشريعة دون علم الحقيقة .. أو أن محمداً ﷺ بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن ، أو أنه علم الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان فقد كفر » (٣) .

فلينظر أهل الكتب دينية أو نظرية أو تجريبية أين هى من هذا الصدق والثبات والإعجاز القرآنى ؟

---

(١) لسان العرب لابن منظور .

(٢) الفلسفة القرآنية : عباس العقاد ص ١٥

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٤ - ١ (بتصرف) .

يقول الفيلسوف الفرنسى « ألكس لوزان » : « ما من كتاب يشمل أى نظريات ولو كانت رياضية إلا جاء العلم ينقض بعض ما حواه حتى الكتب التى ألفت فى القرن العشرين نفسه لم تستطع أن تصمد - من جميع جوانبها - أمام جيوش العلم وكتائبه الجرارة .. إلا القرآن الكريم » .

فما تقدم العلم خطوة إلا وكشف عن ناحية من نواحى الإعجاز العلمى فيه .. وأضاف برهاناً جديداً يؤكد أن القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف تنزيل من حكيم حميد (١) .

* * *

من السلف ؟ ومتى ظهر هذا المصطلح ؟ . « السلف : المتقدم ، قال اللّه تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ (٢) ، ولفلان سلف كرام أى آباء كرام (٣) .

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

أراد تقدمونا ، ولذا سمى الصدر الأول من التابعين السلف الصالح (٤) .

« فالسلف هم الصحابة والتابعون من أهل القرون الثلاثة الأولى (٥) ، وأصبح مذهب السلف عَلماً على ما كان عليه هؤلاء ، ومن تبعهم من الأئمة كالأئمة الأربعة .. وسفيان الثورى .. وسفيان بن عيينة .. والليث بن سعد .. وعبد اللّه بن المبارك .. والبخارى ، ومسلم سائر أصحاب السنن الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل .

وقد ظهر هذا المصطلح حين اشتد النزاع بين فرق المتكلمين .. وكلٌّ يدعى أن الحق معه .. وأنه على هدى السلف وغيره من المخالفين له على باطل .

فكل يدّعى وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

وقد جاء مصطلح السلف على لسان أبى حنيفة (٨٠ - ١٥٠) حين سئل : ما

---

(١) الإسلام والعلم الحديث ص ٦٩ (بتصرف)

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٥٦

(٣) مفردات غريب القرآن : الراغب الأصفهانى .

(٤) لسان العرب : ابن منظور

(٥) العقائد السلفية : لابن حجر ص ١

تقول فيما أحدث الناس من الكلام فى الأعراض والأجسام ؟ قال : عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة » (١) .

كما جاء على لسان العز بن عبد السلام (٥٨٧ - ٦٦٠ هـ) حيث قال : « مذهب السلف : إنما هو توحيد وتنزيه دون تجسيم وتشبيه » (٢) .

فليست السلفية مذهباً ولا رؤية قديمة اندثرت ومضت .. ولكن ستظل علماً على النظرة الإسلامية من واقع الأصلين العظيمين : الكتاب والسنة .

* * *

ما الاعتزال ؟ ومتى كان ؟ . « الاعتزال : الاجتناب ، وسميت به الجماعة المعروفة ، لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد أحدث ما أحدث من البدع ، واعتزل الحسن البصرى وجماعة معه فسموا المعتزلة (٣) .

قال عنه ابن كثير : « كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث .. واعتزل الحسن هو وجماعة فسموا المعتزلة » (٤) .

وقال الملطى : « هم سموا أنفسهم المعتزلة ، وذلك عندما بايع الحسن بن على معاوية - رضى الله عنهم - وسلم إليه الأمر . اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، وكانوا من أصحاب على ، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة » (٥) .

وقال المرتضى : « سميت كذلك لاعتزالهم كل الأقوال التى قالها من قبلهم فى مرتكب الكبيرة :

فالمرجئة تقول إنه مؤمن ، والخوارج تقول إنه كافر ، والحسن يقول إنه منافق .

---

(١) نقض المنطق : ابن تيمية ص ٨١

(٢) طبقات الشافعية : السبكى جـ ٨ ص ٢٢٢

(٣) الأنساب : السمعانى ص ٥٣٦

(٤) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ١ ص ٦٨

(٥) التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٤١ ، نشر عزت العطار سنة ١٩٤٩

لكن « واصلاً » يقول إنه : لا مؤمن ولا كافر فهو فى منزلة بين المنزلتين فيكون فاسقاً وله حكم بين الحكمين » (١) .

وهذا يدل على أن الاعتزال مذهب ذو مبادىء لا مجرد انفصال من مجلس إلى مجلس .. وأنه معنى من المعانى لا حركة جسمية ، ولهذا كانوا لا يعدون الرجل معتزلياً إلا إذا أقر أصولهم الخمسة ، وقرأ مؤلفاتهم فيها وهى : التوحيد .. والعدل .. والوعد والوعيد .. والمنزلة بين المنزلتين ... والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

● المنهج الذى يسلكه البحث :

قبل أن أتناول الموضوع أحب أن أحدد خطوات المنهج الذى نسير عليه :

أولاً : أخذ آراء كل فريق من كتبه ومصنفات رجاله تحقيقاً للأمانة العلمية .. ووصولاً إلى الحق فى جوانب الخلاف متخذاً القاضى عبد الجبار الهمذانى (ت ٤١٥ - ٤٨٥ هـ) ممثلاً للاعتزال لأمور :

١ - لأنه يمثل الاعتزال فى المرحلة النهائية بعد النشأة والاكتمال .

٢ - لأنه يمثل الاعتزال الخالص من التشيع .

٣ - لأن ذلك يجنبنا التشعب والشتات .

ثانياً : التجرد فى البحث من كل ضروب الأحكام المسبقة فقد زال غبار معاركها .. واندثرت دواعيها .

ثالثاً : الدراسة الموضوعية من خلال النصوص .

رابعاً : تقديم حكم الأئمة على رجال الاعتزال ، ثم ما يتوصل إليه البحث من نتائج وتوصيات .

خامساً : الخاتمة .

* * *

---

(١) المنية والأمل ص ٤

● **حقائق مشتركة :**

إن النظرة الإسلامية المتجردة من التعصب والهوى التى ترنو إلى الروابط بين المسلمين وتأصيلها .. وتعمل على تجميع الأمة وتقويتها بعيداً عن الأغوار التى حفرها الزمن وعمقها البعض - لترى عناصر الائتلاف بين السلف والمعتزلة حقائق مشتركة ترد عن النفوس المؤمنة غائلة الهوى والتعصب الذميم .

١ - السلف والمعتزلة موحدون لا يشركون مع الله أحداً : يقول عبد الجبار : « التوحيد لغةً عبارة عما به يصير الشىء واحداً » ، وفى الاصطلاح : العلم بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذى يستحقه والإقرار به (١) .

ويقول : « لو كان مع الله ثان لتمانعا ، وهذا يؤدى إلى الضعف الذى لا يجوز إلا على الأجسام ، فالله واحد لا يشاركه أحد فى القدم والإلهية ، وهذا كمال التوحيد » (٢) .

٢ - السلف والمعتزلة يؤمنون بالملائكة : يقول عبد الجبار : « إن الله تعالى بين أنه خص آدم عليه السلام بأن علمه الأسماء ليكون معجزة له ، فأراد أن يبين للملائكة أن هذا الاختصاص يوجب نبوته فقررهم بقوله : ﴿ أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ (٣) ، على ذلك (٤) .

ويقول فى تفضيل الملائكة على الأنبياء عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ (٥) .

ولو ثبت دخول الملائكة عليهم السلام فى « العالمين » لم يدل ظاهر الكلام على أن الأنبياء عليهم السلام أفضل ؛ لأنه تعالى لا يجب إذا اختار فى الإرسال واحداً على غيره أن يكون أفضل من ذلك الغير ، وإنما علمنا أن الرسل أفضل من أممهم للإجماع (٦) .

---

(١) شرح الأصول الخمسة : عبد الجبار ص ١٢٨

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦

(٣) سورة البقرة ، آية : ٣١

(٤) سورة آل عمران ، آية : ٣٣

(٥) متشابه القرآن ص ٨١

(٦) متشابه القرآن : عبد الجبار ص ١٤٥

وعند قوله تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لِلّه ولا الملائكة المقربون ﴾ (١) ، يقول : مما اعتمده شيوخنا رحمهم اللّه فى أن الَملائكة أفضل من عيسى ، لأن الاستنكاف هو الأنفة ، ولا يجوز فى اللغة أن يقول الإنسان : إن فلاناً لا يأنف من خدمتى ولا فلان ، إلا والمذكور الثانى أفضل حالاً من الأول وأشهر فضلاً منه (٢) .

٣ – السلف والمعتزلة مؤمنون بالقرآن معجزة خالدة . يقول عبد الجبار : « فإن قيل : وما المعجز الذى ظهر على محمد ؟ قلنا : معجزات كثيرة من جملتها القرآن . فإن قيل : وما وجه الإعجاز فيه ؟ قلنا : هو أنه تحدى بمعارضته العرب مع أنهم كانوا هم الغاية فى الفصاحة (٣) .

وقال فى شرح قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين ﴾ (٤) .

المراد بالآية التنبيه على إعجاز القرآن لأن ذلك يجرى مجرى التحدى ثم قال منبهاً على تعجيزهم : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ يعنى فى المعارضة ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه ﴾ (٥) . أى أنزل من قبله وهو عالم بما عليه من الفصاحة والنظم (٦) .. وكتابه إعجاز القرآن شاهد مبين .

كما يستدلون بالقرآن ويعدونه أصلاً .

يقول عبد الجبار : « والأحكام الشرعية فإنها إنما تعلم بالخطاب وما يتصل به .. ولولاه لما صح أن يعلم بالفعل الصلوات الواجبة ولا شروطها ولا أوقاتها ، وكذلك سائر العبادات الشرعية » (٧) .

فإن قال : فيجب أن تقولوا فى القرآن إنه كله حجة .

قيل له : إنا نطلق ذلك فى جميعه من حيث حصل بجميعه الغرض المقصود .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٧٢

(٢) متشابه القرآن ص ٢١٤

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٥٨٦

(٤) سورة هود ، آية : ١٣

(٥) سورة هود ، آية : ١٤

(٦) متشابه القرآن ص ٣٧٥

(٧) متشابه القرآن ص ٣٥

وما فيه من القصص عن الأمم الماضية لما كان الغرض بها الاعتبار الذى له تأثير فى التكليف - حل محل الأمر فيه النهى فقيل فى الجميع إنه حجة (١) .

وهم ينزهون القرآن عن المطاعن والشبهات .

وللقاضى عبد الجبار كتاب سماه : « تنزيه القرآن من المطاعن » عرض فيه للآيات التى تعلق بها الطاعنون سواء كان ذلك من وجوه اللغة أو الإعراب أو النظم أو المعانى (٢) .

٤ - السلف والمعتزلة يؤمنون بالنبوات . يقول عبد الجبار « أصول الدين أربعة : التوحيد ، والعدل ، والنبوات ، والشرائع » (٣) . ويقول : « لما لم يمكنا أن نعلم عقلاً أن هذا الفعل مصلحة ، وذلك مفسدة بعث اللّٰه تعالى إلينا الرسل ليعرفونا ذلك » (٤) ، وقد أكد الرجل النبوة ومعجزاتها فى كتابه « تثبيت دلائل نبوة محمد » .

٥ - السلف والمعتزلة يؤمنون باليوم الآخر والسمعيات . يقول عبد الجبار عند قوله تعالى : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّٰه وإنا إليه راجعون ﴾ (٥) : « المراد به : إنا نرجع إلى حيث لا يتولى الحكم سواه ، لأن اللّٰه تعالى فى دار الدنيا قد ملك غيره الأحكام ، وفى الآخرة يختص تعالى بأمر عباده » (٦) .

وفى السمعيات بعد إثبات عذاب القبر والرد على من ينكره يقول : « وقد اتصل بهذه الجملة الكلام على أحوال القيامة وما يجرى هناك من وضع الموازين ، والمساءلة والمحاسبة وإنطاق الجوارح ونشر الصحف وما جرى هذا المجرى » .

وجملة ذلك أن كل هذه الأمور حق يجب اعتقادها والإقرار بها (٧) .

تلك عناصر الائتلاف فى الصورة تثبت بجلاء لا يعتوره شك أن المعتزلة فى

---

(١) متشابه القرآن ص ٣٦

(٢) طبع عن مخطوطة بدار الكتب سنة ١٣٢٩ هـ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ١٢٢

(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٥

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٥٦

(٦) متشابه القرآن ص ١١٤

(٧) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٤

شخص مَن ارتضاه البحث ممثلاً لهم - يؤمنون بأصول الدين الخمسة التى جاء بها القرآن والسنة ، وآمن بها المسلمون ولم يستبدلوا بها أصولهم الخمسة .

فما خطوط الاختلاف ؟

● مسائل اختلفوا فيها :

لا شك أن الاختلاف بين السلف والمعتزلة واضح فى كثير من مسائل الدين لكن الذى نقصده بهذه الدراسة موقف كل منهما من الحقيقة القرآنية .. وقد سبق أنهم متفقون فى أصول الدين الخمسة : الإيمان بالله .. وملائكته .. وكتبه .. ورسله .. واليوم الآخر ..

يقول أبو الحسن على بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعرى (توفى عام ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ) : « اختلف المسلمون بعد نبيهم فى أشياء ضلل فيها بعضهم بعضاً ، وتبرأ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقاً متباينين إلاّ أن الإسلام يجمعهم فيعمهم » (١) .

فما هى جوانب الخلاف ؟ ثم أمن أصول الدين هى أم لا ؟

أولاً : ماذا بينهما فى حجية القرآن ومنزلته بين الأدلة ؟

يرى القاضى عبد الجبار أحمد الهمذانى إمام المعتزلة فى عصره (٤١٥ - ٤٨٥ هـ) إن الكتاب أصل فى الدلالة لكنهم يقدمون عليه العقل فيقول :

« اعلم أن الدلالة أربعة : حجة العقل .. والكتاب .. والسنة .. والإجماع » (٢) .

ثم يقول معللاً : « أول الأدلة دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع » (٣) .

فحجية الكتاب عندهم لا يمكن القول بها قبل معرفة الله تعالى وحكمته ، وأنه منفرد بالإلهية ، فإذا كان سبيل هذه المعرفة هو العقل فحقه أن يكون فى رأس الأدلة .

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ٣٤ (٢) شرح الأصول الخمسة ص ٨٨ (٣) متشابه القرآن ص ٤١

ويقول : « فإن قال : ومن أين أن صحة القرآن لا تعلم إلا بعد معرفة الله ؟ قيل له : لأن الخبر لا يعلم بصيغته أنه صدق أو كذب حتى إذا علم حال المخبر صح .. فيجب أن يعلم أولاً أنه عز وجل حكيم لا يختار القبيح حتى يصح أن يستدل بالقرآن على ما يدل عليه .. » (١) .

أما عند السلف . فقول الإمام أحمد : « أصول الدين أربعة : دال .. ودليل .. ومبين .. ومستدل . فالدال : هو الله . والدليل : هو القرآن . والمبين : هو النبى ﷺ (لتبين للناس ما نزل إليهم) . والمستدل : هم أولوا العلم وأولوا الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم » (٢) .

يوضح ذلك ابن تيمية فيقول : « إن أصول الدين : إما أن تكون مسائل كمسائل التوحيد ... أو دلائل هذه المسائل » .

أما القسم الأول : فكمل ما يحتاج الناس إلى معرفته من هذه المسائل ، فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر .

وأما القسم الآخر : وهو دلائل هذه المسائل فقد يظن طوائف من المتكملين :

أ - أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر .

ب - فى ظنهم أن دلالة الكتاب إنما هى بطريق الخبر المجرد (٣) .

وينقض ابن تيمية هذا الرأى بما يلى :

أولاً : ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه بين من الأدلة العقلية التى يحتاج إليها فى العلم بذلك ما لا يقدره أحد من هؤلاء قدره .

ثانياً : الأمثلة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه وقال عنها : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ (٤) ، ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٥) .

---

(١) متشابه القرآن ص ١ (٢) النبوات ص ٤٢ (٣) الفتاوى الكبرى : ١ / ٤٤٥

(٤) سورة الزمر ، آية : ٢٧ (٥) سورة العنكبوت ، آية : ٤٣

هذه الأمثلة هى الأقيسة العقلية لكن يستعمل فى ذلك قياس الأولى ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ (١) .

لقد خاطب يوسف عليه السلام صاحبى السجن فقال : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾ (٢) . فما قال أحدهما : من قائل هذا الخبر ؟

لقد قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟ ﴾ (٣) . فما قال له : من قائل هذا الخبر ؟

وحين تلا رسول الله ﷺ : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (٤) . ما قال أحد : من قائل هذا الخبر ؟

فدلالة الكتاب فى هذا ليست بطريق الخبر المجرد الذى يتوقف على معرفة قائله .. وصدقه .. وإنما تخاطب الأمثلة عقل الإنسان ومنطقه .. وتحرك وجدانه ومشاعره .. وتضعه أمام حقيقة ينطق بها واقعه وحسه .

والقرآن مملوء بهذه البراهين العقلية الدالة على ذلك . قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ (٥) .

فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه فى ماله حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره بل تمنعون نظيره ، وأن يكون المملوك لكم نظيراً .. فكيف ترضون أن تجعلوا مملوكى ومخلوقى شريكاً لى يدعى ويعبد كما أدعى وأعبد ؟

ويقول سبحانه : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٦) .

يقول ابن القيم : « هذا مثل ضربه الله لنفسه سبحانه والأوثان : فالله سبحانه

---

(١) سورة النحل ، آية : ٦٠ (٢) سورة يوسف ، آية : ٣٩ (٣) سورة مريم ، آية : ٤٢

(٤) سورة الحج ، آية : ٧٣ (٥) سورة الروم ، اية : ٢٨ (٦) سورة النحل ، آية : ٧٥

وهو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ليلاً ونهاراً .. والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء فكيف يجعلونها شركاء لى .. ويعبدونها من دونى مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ (٢) .

يقول ابن القيم : « هذا مثل ضربه الله للأصنام التى لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل ، وهى كل على عابدها .. يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده .. ويضعه .. ويقيمه .. ويخدمه .. فكيف يسوونه فى العبادة بالله الذى يأمر بالعدل والتوحيد ، وهو قادر سبحانه يتكلم غنى على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وهذا باب واسع فى كتاب الله » (٣) .

ثالثاً : من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا بذوقه ولا بمعقوله .. ولا قياسه ولا وجده .. فإنه ثبت عنهم بالبراهين القطعيات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق .. وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم .

رابعاً : إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ، وتقديم العقل ممتنع ، لأن العقل قد دل على صحة السمع ، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل .

وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل ، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء .

والعقل إذا صدق السمع فى كل ما أخبر به ، ثم قال : إنه أخبر بخلاف الحق كان هو قد شهد للسمع بأنه يجب قبوله ، وشهد بأنه لا يجب قبوله ، فكان هذا قدحاً

---

(١) أعلام الموقعين : ابن القيم : ١٦٠/١ (٢) سورة النحل ، آية : ٧٦

(٣) مدارج السالكين : ١٧١/١

فى شهادته مطلقاً . فلا يجب قبول شهادته الأولى ولا الثانية ، فلا يصح أن يكون معارضاً للسمع بحال ، وما علم بمعقول صريح لا يخالفه خبر صحيح .

والمعقول الصريح ما يعرفه الناس بفطرهم من غير أن يتلقوه (١) .

خامساً : ليس فى المعقول الصريح ما يمكن أن يكون مقدماً على ما جاء به الرسول ، وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل ، وأنهم لا يقولون على اللّه إلا الحق ، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن اللّه ، فوجب أن جميع ما يخبر به الرسول عن اللّه صدق وحق (٢) .

« ولأن الأنبياء قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه .. فيخبرون بمحاورات العقول لا بمجادلتها » (٣) .

ولهذا يقرر ابن تيمية فى فتاويه : « على الناس أن يجعلوا كلام اللّه ورسوله هو الأصل المتبع والإمام المقتدى به ، أما سوى كلام اللّه ورسوله فلا يجوز أن يكون أصلاً بحال » (٤) .

ثانياً – الطريق المؤدية إلى معرفة اللّه :

يرى القاضى عبد الجبار أن النظر فى الطريق المؤدية إلى معرفة اللّه واجب ، ثم يعينه بمعرفة الأجسام .

يقول : « إن سأل سائل فقال : ما أول ما أوجب اللّه عليك ؟ فقل : النظر المؤدى إلى معرفة اللّه تعالى ، لأنه تعالى لا يُعرف ضرورة ولا بالمشاهدة ، فيجب أن تعرفه بالتفكر والنظر » (٥) .

ويقول : « معرفة اللّه متولدة عن النظر .. فلا يُعرف اللّه ضرورة ، إذ لو كانت معرفة اللّه ضرورة لما اختلف فيه العقلاء كما لا يختلفون فى الضروريات ، ولأجمعوا على معرفته حق المعرفة إجماعهم على سواد الليل وبياض النهار . ولما

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١/ ١٧١ (٢) المرجع السابق ص ١٣٢

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ١/١٣٣ (٤) الفتاوِى الكبرى لابن تيمية : ٥/ ١٧٠

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٣٩

وجدنا من يكفر بالله ، ويلحد فيه ، بل من يرتد بعد إيمان .. فعلمنا أن معرفة الله ليست ضرورية ، ذلك لأن العلم الضرورى هو علم اضطرارى مبتدأ فى العقل »(١) .

ويقول : « إن العلم بكمال التوحيد ، لا يحصل ما لم يحصل العلم بحدوث الأجسام ، فالاستدلال بالأجسام على الله أولى من الاستدلال بغيرها .. لأن الاستدلال بالأجسام يتضمن إثبات الأعراض وحدوثها » .

قالوا : العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض . والأعراض لا تبقى زمانين متتاليين ، وإنما يطرأ عليها التغير والتحويل فهى حادثة .

والجواهر لا تتعرى عن الأعراض التى هى ملازمة لها .. وما دامت الجواهر لا تنفك عن الأعراض التى هى حادثة . فإنها حادثة بحدوثها لأن ما لازم الحادث فهو حادث .

وما دام العالم مكوناً من الجواهر والأعراض وقد ثبت حدوثها ، فالعالم حادث .. وكل حادث لا بد له من مُحْدِث(٢) .

فالقاضى يبنى رأيه على أساسين :

١ - إنكار إيمان الفطرة .

٢ - الاستدلال بالأجسام .

فما موقف السلف ؟

مذهب السلف أن معرفة الله مغروزة فى ضمير كل إنسان فهو مفطور عيها للأدلة الآتية :

١ - العهد بين الله والفطرة فى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾(٣) .

٢ - قوله تعالى فى الحديث القدسى : « خلقت عبادى ضعفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ... » .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٤

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٩٩

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢

٣ - قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه .. وينصرانه .. ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها اقرءوا إن شئتم ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ (١) .

٤ - لجوء الإنسان عند الفزع إلى ربه : ﴿ هو الذى يُسَيِّركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ (٢) .

٥ - دعوة الرسل إلى أممهم تطالب بعبادة الله ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٣) . والدعوة إلى العبادة فرع الإقرار بوجود المعبود ومعرفته .

٦ - إنكار الفطرة وبواعثها مناقضة للعقل . يقول ابن القيم : « معلوم أن وجود الله تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمهما » .

ويقول : « سمعت شيخ الإسلام يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء .. وكثيراً ما كان يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح فى الأذهان شيء　　　إذا احتاج النهار إلى دليل (٤)

ولو لم يكن فى صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن فى قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (٥) ، ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا ﴾ (٦) .

ويقول ابن تيمية : « معرفة الله ليست معدودة من النظريات التى يقوم عليها البرهان ، وإن الفطرة تشهد بضرورتها وبديهة فكرتها بالصانع الحكيم .. وأن ما تنتهى إليه مقدمات الاستدلالات دون ما شهدت به الفطر الإنسانية من احتياج الإنسان فى ذاته إلى مدبر .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٣٠　(٢) سورة يونس ، آية : ٢٢　(٣) سورة النحل ، آية : ٣٦

(٤) مدارج السالكين ص ٦٠　(٥) سورة يونس ، آية : ١٠١　(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٢٠

لكن بعض الناس قد ينكر الصانع كنمرود وفرعون ، وتكون المحاجة ، وهذا لا يمنع من أن تكون المعرفة مستقرة فى الفطرة ثابتة بالضرورة .

أما ما يحدث من بعض الناس من منازعات فى القضايا البديهية ، والمعارف الفطرية فنوع من السفسطة يعرض لبعض الناس عمداً أو خطأ » (١) .

ويقول العقاد : « الإنسان له وعى يقينى بوجوده الخاص ، ولا يخلو من وعى يقينى بالوجود الأعظم ، لأنه متصل بهذا الوجود ، بل قائم به . فإذا قالت البداهة العقلية : نعم هناك إله فهذا القول له قيمة فى النظر الإنسانى لا تقل قيمة عن قيمة المنطق والقياس » .

ثم يستشهد بالتاريخ فيقول : « إذا رجعنا إلى تاريخ الإيمان فى بنى الإنسان وجدنا أن اعتماده على الوعى الكونى أعظم جداً من الاعتماد على القضايا المنطقية » .

ويزيد المعنى وضوحاً وتأكيداً فيقول : « إن البراهين جميعاً لا تغنى عن الوعى الكونى فى مقاربة الإيمان بالله .. والشعور بالعقيدة الدينية .. وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شىء لا ينحصر فى عقل إنسان ، ولا فى دليل يتمخض عنه عقل إنسان » (٢) .

ويقول الشهيد سيد قطب عند قوله تعالى : ﴿ ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ (٣) :

« جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى .. وأساليب متنوعة .. ووسائل متعددة ، ليذكروا ، فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر .. والرجوع إلى الفطرة ومنطقها .. وإلى الآيات الكونية ودلالتها » (٤) .

٧ - لم يَرِد التكليف بمعرفة وجود الصانع .. وإنما ورد بالتوحيد ونفى الشريك . قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا هو ﴾ (٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ٤٠٣/٧ (٢) الله : العقاد ص ١١٢ وما بعدها .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٤١ (٤) فى ظلال القرآن لسيد قطب ص ٢٢٣٠ (٥) محمد : ١٩

ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق فى التوحيد ونفى الشريك » (١) قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعى اللّه وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا ﴾ (٢) .

أما موقف السلف من استدلال المعتزلة بالأجسام ووجوب النظر فيه فإنهم ينقضون هذا المذهب بالأدلة الآتية :

أولاً : يأخذون على دليل الاجسام أموراً :

١ - طول المقدمات ، وكثرة التقسيمات ، مما يجعل الدليل صعباً على الجمهور .

٢ - الجسم المساوى مشكوك فى إلحاقه بالشاهد .. والشك فى حدوث أعراضه كالشك فى حدوثه نفسه ، لأنه ليس محسوساً لنا لا هو ولا أعراضه فمن أين لنا إثبات حدوثه ؟

٣ - أنه لا يدل على إثبات صانع بعينه .. وإنما يدل على أمر كلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه .

فإذا قلنا : هذا مُحدَث .. وكل مُحدَث لا بد له من مُحْدِث ، إنما يدل على مُحدِث مطلق .. ولو عين بأنه قديم أزلى فالنتيجة تدل على أمر كلى غير معين .. ولا تدل على الموجد لها بذاته ، إلا إذا اقترنت بمعرفة الفِطَر ، وهو لا يقر بها .

٤ - بالغ حيث جعل النظر فى دليل الأجسام أول واجب على المكلف .. ومن لم ينظر فى هذا الدليل لم يصح إيمانه ، وهذا باطل لأنه مفرع على أصل باطل .

ثانياً : يقول ابن تيمية : « إن هذا نظر واستدلال ابتدعوه :

١ - ليس هو المشروع لا خبراً ولا أمراً ، وهو استدلال فاسد لا يوصل إلى العلم .

٢ - إن علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ، ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون شرطاً فى الإيمان والعلم .

٣ - قد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم ، وأنهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به ، وعالمون باللّه وبأنه لا إله إلا اللّه ، ولم يكن

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ٣٩٨/٧

(٢) سورة غافر ، آية : ١٢

الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين . قال تبارك وتعالى : ﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ (١) ، وقد وصفهم اللّه باليقين .. والهدى .. والبصيرة فى غير موضع فقال فى شأنهم : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ (٢) ، ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ (٣) ، ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى اللّه على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ (٤) » (٥) .

ثالثاً : النظر والاستدلال الذى ارتضاه صفوة الأمة إنما هو بالآيات والأدلة التى بعث اللّه بها رسوله . وآية الخلق من العدم أقوى الأدلة على الخالق جل وعلا . قال تعالى : ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ (٦) . ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ (٧) ، ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ ﴾ (٨)

فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان فى غاية الحسن والاستقامة وهى طريقة عقلية صحيحة وهى شرعية : لأن القرآن دل عليها .. وهدى إليها .. وبينها .. وأمر بها .

وهى عقلية : لأن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن .. ومولوداً ومخلوقاً من نطفة .. ثم علقة .. ثم مضغة هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول .. وإنما يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر الرسول أو لم يخبر » (٩) .

رابعاً : يعلل ابن تيمية لإعراض المعتزلة عن هذه الأدلة فيقول : « سبب إعراضهم عن الفطرة العقلية .. والشرعة النبوية ما ابتدعه المبتدعون بما أفسدوا به الفطرة والشرعة فصاروا يسفسطون فى العقليات ... ويقرمطون فى السمعيات » (١٠) .

خامساً : يعطى الطوفى تفصيلاً رائعاً فى القضية فيقول عند قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا اللّه واستغفر لذنبك ﴾ (١١) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٨ (٢) سورة البقرة ، آية : ٣ (٣) سورة البقرة ، آية : ٤
(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ (٥) النبوات ص ٤٢ (٦) سورة مريم ، آية : ٦٧
(٧) سورة الطارق ، آية : ٢ (٨) سورة الطارق ، آية : ٨ (٩) النبوات ص ٥٢
(١٠) النبوات ص ٥٢ (١١) سورة محمد ، آية : ١٩

يحتج به على تقديم أصول الدين كالتوحيد على فروعه كالاستغفار وغيره لتقديمه التوحيد ههنا ، ولأن رتبة الأصل قبل رتبة الفرع .

وعلى أن المعتبر فى الأصل العلم لا غيره لقوله : ﴿ فاعلم ... ﴾ وهذا فيه تفصيل :

هو أن ما كان من القضايا الأصولية بدهياً استوى فيه العالم وغيره .. واعتبر فيه العلم .

وما كان نظرياً : فإن كان قريباً من البدهى جاز أن يكلف العامى بالنظر فيه ليعلم .

وإن لم يكن قريباً بعد أن يكلف به العامى لإفضائه إلى تعطيل معاشه خصوصاً مع كثرة الشبه ودقتها . ثم يقول : وكان النبى ﷺ يَقنع من عامة الناس بمجرد التصديق والانقياد لما جاء به ، ولو وجب عليهم العلم النظرى لبينه لهم (١) .

وليس معنى ذلك جواز التقليد فى الأصول . فقد أمر الله بالعلم بالتوحيد : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا هو ﴾ (٢) ، وطالب بالبرهان وجعله آية الصديق ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٣) ، وجعل الظن لا غناء فيه فقال : ﴿ وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً ﴾ (٤) . وإنما المقصود نفى وجوب تأليف الأدلة على نظام المقاطعة ، أو التزام طريقة المتكلمين ، وبيان أن طريق القرآن أفضل وأمثل ، فالاستدلال على الخلق بخلق الإنسان فى غاية الاستقامة . وجعل سبيله الدعوة على بصيرة : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ (٥) .

بهذا يتقرر أن العلم بالله وإثبات وجوده من نوع العلم الضرورى الذى لا بد للإنسان فيه ، وليس من العلوم الاستدلالية التى يحصلها الإنسان كما تدعى المعتزلة .

{ للبحث بقية }

---

(١) الإشارات الإلهية ص ١٥٨

(٢) سورة محمد ، آية : ١٩

(٣) سورة النجم ، آية : ٢٨

(٤) سورة النمل ، آية : ٦٤

(٥) سورة يوسف ، آية : ١٠٨